



+ آباؤنا القديسون

القديس مكسيموس المعترف

تعيّد الكنيسة المقدّسة في الحادي والعشرين من كانون الثاني لتذكّار القديس البار مكسيموس المعترف الذي عاش في القرن السابع ودافع عن الإيمان القويم الذي هدّدته الهرطقات، وقاسى العذابات من أجل الحفاظ على هذا الإيمان، ولهذا لُقّب بالمعترف.

وُلد مكسيموس في القسطنطينية عام ٥٨٠، لعائلة متقدّمة في الشرف والغنى، وقد تربّى تربية لائقة ونجح في العلوم كافة، وفي الفلسفة والمنطق والخطابة خاصة، وكان منذ صباه يضاهاى أعظم علماء عصره، مما دفع الملك هرقل أن يختاره ليكون أمين سرّه الأول. أفاض الله في قلب مكسيموس نعمه الإلهية فأدار ظهره لعظمة هذا الدهر ومجد العالم الباطل، وسعى وراء الأمور السماوية، فترهّب في دير والدة الإله في خريسوبوليس قرب القسطنطينية. اختبر مكسيموس في الدير جميع أنواع الصيامات والتشقّفات، وكان يقضي معظم الليل في الصلاة. حارب الغضب بالوداعة، ومارس الصمت المقدس. وبعد عشر سنوات من العيش في المسؤولية انتقل مع تلميذ له للعيش في دير قريب في كيزيكوس، وهناك باشر كتابة أولى مؤلفاته عن الصراع ضد الأهواء، وعن الصلاة والحجبة المقدسة. غير أن هجوم الجيش الفارسي على القسطنطينية دفع الرهبان إلى الهرب، فذهب مكسيموس أولاً إلى كريت ثم إلى قبرص فقرطاجة (عام ٦٣٢)، وهناك قاوم القائمين بطبيعة واحدة إلهية في المسيح.

فمنذ ارتقاء الإمبراطور هرقل العرش، عام ٦١٠، حاول توحيد الإمبراطورية عبر توحيد المسيحيين. ولكي يتجنّب خروج المسيحيين من اتباع الطبيعة الواحدة على الإمبراطورية طلب من بطريك القسطنطينية سرجيوس إعداد صيغة توافقية، فاقترح سرجيوس اعتبار طبيعة الرب يسوع البشرية منفصلة لا فاعلة، أي اعتبر المسيح بطبيعتين إلهية وبشرية إنما بإرادة إلهية فقط. قبل المصريون الصيغة الجديدة وعارضها البطريك الأورشليمي ومعه مكسيموس، وشدّدا على أن المسيح بطبيعتين وإرادتين إلهية وبشرية. من أقوال مكسيموس: "إن المسيح يحقق بشرياً ما هو إلهي من خلال عجائبه، ويحقق إلهياً ما هو بشري من خلال آلامه المحيية".

استمر الصراع اللاهوتي بين الفريقين إلى أن أصدر الملك هرقل أمراً عام ٦٣٨، عُرف بالأكتيسيس، منع فيه الكلام عن الطبيعتين وفرض الاعتراف بإرادة واحدة في المسيح.

عارض مكسيموس القرار ولم يرضَ السكوت عن الخطأ، وجاهر بالحقيقة علناً أمام الجميع، وراسل أسقف رومية والإمبراطور موضحاً لهما الإيمان القويم.

توفي الإمبراطور هرقل وخاف خليفته قسطنديوس أن ينشق الغرب عن الإمبراطورية، خاصة بعد سقوط مصر في يد العرب، فأصدر مرسوماً، تيبوس، عام ٦٤٨ حرّم فيه على كل مسيحي مناقشة موضوع الطبيعتين والمشيتين (الإرادتين). لم يذعن مكسيموس للقرار وقصد روما والتقى بابا روما مرتينوس الأول الذي دعا إلى مجمع في اللاتران عام ٦٤٩ أدان القول بالمشيئة أو الإرادة الواحدة. ولما وصلت أخبار المجمع إلى الإمبراطور أمر بإلقاء



+ آباؤنا القديسون

القبض على مكسيموس، فاقتيد مكسيموس مقيداً بالسلاسل إلى القسطنطينية يصحبه اثنان من تلاميذه مقيدان بالسلاسل مثله. وصلوا إلى القسطنطينية عام ٦٥٣. عند وصوله عرّي مكسيموس من ثيابه وجُرّ في الشوارع وأهين ثم طُرِح في السجن ومُنِعَت عنه الزيارات. بقي في السجن أشهراً طويلة قبل أن يمثل للمحاكمة. في المحكمة تعرّض للشتم والتهديد، وأورد الحاكم ضده تمهاً كاذبة، إذ اتهمه بالتآمر على الدولة ورمي الشقاق في الكنيسة. أما هو فأجاب أنه لن يخون الإيمان حتى لو قطع من الشركة، فحُكِم عليه بالنفي إلى بيزيا في تراقيا حيث البرابرة الوثنيون، فعانى الأمرين في المنفى.

أرسل الإمبراطور عدداً من الرسل إلى مكسيموس في منفاه لإقناعه بقبول "التيبوس" لكن مكسيموس ظل ثابتاً على موقفه ولم يتزحزح، بل أقنع الرسل بصواب رأيه. نقل الجند مكسيموس إلى ديسر ثاودورس قرب القسطنطينية، وأتى إليه رجلاً من قِبَل الملك يحاولان إقناعه من جديد، فلم يفلحوا. شتماه وضرباه وانصرفا دون أن يتراجع مكسيموس عن إيمانه الصلب.

بعدها أُحضر مكسيموس أمام بطريك القسطنطينية ومجمع الأساقفة، وكانوا كلهم ممن أتباع الإرادة الواحدة. وقف أمامهم ودافع عن الإيمان بطبيعتين وإرادتين بشرية وإلهية في المسيح. فلعنوه وأهانوه وأسلموه لحاكم المدينة الذي أمر بجلده وقطع لسانه ويده اليمين أي العضوين اللذين بهما اعترف بإيمانه. ساقه الجند مدمى في شوارع القسطنطينية وأودعوه قلعة في أقاصي القوقاز، وبقي هناك إلى أن أسلم الروح في ١٣ آب عام ٦٦٣ عن عمر ناهز الثانية والثمانين.

بعدهما تولى الإمبراطور قسطنطين الرابع مقاليد الحكم تولد لديه الإقتناع بعدم جدوى ما يُبذل من تنازلات من أجل الوحدة مع أتباع الطبيعة الواحدة، فدعا إلى مجمع مسكوني (السادس) التأم في القسطنطينية عام ٦٨٠ وحضره أكثر من ١٧٠ أسقفاً، بينهم بطاركة القسطنطينية وإنطاكية ومثّلون عن روما والإسكندرية وأورشليم. فثبّت المجمع رأي القديس مكسيموس المعترف وقطع من الشركة كل القائلين بالإرادة أو المشيئة الواحدة. وأهمى المجمع أعماله بالإعلان: "نصرّح أن في المسيح مشيئتين طبيعتين وفعالين طبيعيين بلا انقسام ولا تغيير ولا تجزؤ ولا احتلاط، وليست المشيئتان متضادتين، بل المشيئة البشرية تتبع بلا مقاومة ولا تلكؤ وتخضع لمشيئته الإلهية القادرة على كل شيء".

هكذا أعادت الكنيسة الاعتبار للقديس مكسيموس المعترف الذي وقف وحده مدافعاً عن الإيمان أمام الجميع دون خوف، وبقي وحيداً، لكن الله كان معه وهو جالس الآن عن يمين الآب في ملكوته. فبشفاعته اللهم ارحمنا وخلصنا آمين.